الجغرافية السياسية ولعبة الكبار

المتتبع للحدث السياسي بعد الحرب العالمية الأولى يستشف أن سايكس بيكو الإتفاقية وسايكس بيجو الجيوسياسية وسايكس بيكو المآلات كانت أكبر من فهم الشرق الأوسط آنذاك، الذي إصطدم على قراءات مكماهون وشريف حسين حيث ماكان مخفيا في سياقات التفاهمات غائبا عن ذهنية مراهقي السياسة ممن أحسنوا الظن في كبار اللاعبين وهذه هي الحالة التي لازمت العقلية الثأرية والبداوية وانتهازي المواقع القيادية في أمة لم تعرف معنى الحكم والسلطة والقوة إلا من خلال البطن والجنس والصولجان.

هكذا عامل الكبار وأداروا المواقع في أمة لم تفهم في أبجديات السياسة إلا الإخضاع والهيمنة والتحكم من خلال مرتزقة جلبوها من أقاصي العالم لأجل الإماء ولياليي الأنس والمال والبذخ.
الدولة العثمانية أو كما رآها الغرب (الإمبراطورية)لم تكن نشازا من هذه الحالة فقد كانت أشد من الخلافة الأموية والعباسية في هذا المسار والفارق أن المسرح العثماني جمع البلطيق والبلقان والتتار الذين خرجوا من ذات الرحم حتى وصلوا للعصقلية فضلا عن الشرق الأوسط وبلاد العراق وجميع الشام ومصر والسودان.
دانت لهم الدنيا فتصرفوا فيها تصرف السادة بالإماء والعبيد من الزنج والديلم.
وما أن إنتهت الحرب الكونية الأولى إلا والغدر البريطاني الفرنسي مع أشراف المنطقة في بلاد العرب قد لف الواقع بخرائط تقسم الأوصال بعد أن إستنفدت قواهم كلا من بريطانيا وفرنسا بل الروس كذلك في الحروب مع الأتراك فضربوا بعضهم ببعض وتقاتل أبناء الدين الواحد ومن المفارقات التاريخية التي تقف لها الهامات إجلالا هي تلك التي تمثلت برجالات ثورة العشرين في أرض العراق حيث هم الوحيدون الذي استبسلوا في ساحات الشرف ووقفوا مع الأتراك على فضاعتهم ضد الإنجليز في الوقت أن كل الشام والعرب الذين دخلوا في التحالفات مع المستعمر الإنجليزي وقفوا ضد الدولة العثمانية واسقطوا مواقعها في يد المستعمر.
وقف أبناء علي مع بني عثمان ضد الدخيل حتى وإن كان أبناء علي هم الأكثر ضررا من غيرهم من بني عثمان.
تلك هي الثقافة التي نشأ عليها بنو علي عبر تاريخهم متذكرين قول إمامهم
لأسالمن ماسلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلا علي خاصة.

وخسر بنو علي كل العراق نكاية بمواقفهم وأبعدهم الإنجليز عن مواقع القيادة وحصل ماحصل حتى بلغت بهم الدماء الركب في امتدادات الحكم الذي آل إلى البعث المجرم في نهايته المشؤومة.

فيما الآخرون تماشوا مع المستعمر فحصلوا بعض الوطر (صبابة كصبابة الإناء) والذي نراه اليوم هو امتداد لذلك التواطئ المشين والآتي يخفيه القدر.

وما أن إنتهت الحرب الكونية الأولى وتحديدا عام 1924 إلا وقد أعلنت الدولة العثمانية رسميا إنتهاء وجودها تابعة للنظام الغربي شيئا فشيئا وكان خير وسيلة لتلك التبعية هو الإعلان عن فصل الدين عن الدولة وركوب الموجة العلمانية التي بها أنقذ كل الواقع التركي من التشتت إلى الكيانات والدول العرقية من الترك والكرد والعلويين والأرمن.

ومع نهايات الحرب الكونية الثانية تقسم العالم بين القطبين ناتو ووارسو المتمثلين بأمريكا الإمبريالية الوريثة للإرث الغربي المنهار الذي أنقذته بمشروع مارشال ومن خلال إتفاقية برتن وودز ومن خلالها تربعت على عرش الإقتصاد الرأسمالي الحر فإن الإمبريالية الإمريكية قد أصبحت في رأس الهرم المتحكم بمفاصل النظام العالمي الرأسمالي قابله نظامي يساري بمشروعه الاشتراكي وببلوتاريته عبر أدوات التخطيط المركزي ووسائل الإنتاج المتمركز بيد النخبة البلوتارية مع إلغاء الملكية الفردية وإرجاعها هي وجميع أنواع فائض القيمة إلى دولة الحزب الواحد ينتهي بنظام دولي يساري المتمثل بالإشتراكية العالمية.

ولعل من الفرص الضائعة التي تحسر عليها إستالين ولم يهدأ له قرار هي ضياع تركيا والتحاقها بركب الغرب وانضمامها لناتو.

كانت روسيا تعتبر ذلك من الفرص المهدورة ماكان ينبغي لها أن تفلت من أيدي النظام الشرقي المتمثل بها على رأس الهرم الاشتراكية العالمية وهي أي تركيا على بعد مرمى منها ومن منظومتها الشرقية في كل البلقان

ولايفصل بينهما إلا المشترك من البحر المسمى أسود وقد غدا أسودا لحلاكته وحاجزه المنيع إلى بلاد الفارس ومن ثم إلى المياه الدافئة حينما غدت ذات أهمية في الإستراتيجية العالمية بعد ظهور النفط.

بقيت تركيا في رأس الأولويات الإستراتيجية لحلف ناتو لجيوسياستها لمعبرين من أهم المعابر إلى أوربا بسفور ودردنيل وكرأس حربة في خاصرة النظام الاشتراكي للإتحاد السوفياتي ومن هنا فقد استحوذت على الأهمية القصوى لحلف ناتو .
ومع هذه العضوية لحلف ناتو فإن تركيا استفادت من الحلف على مر تاريخه من بعد الحرب الكونية الثانية لدرجة أن جيشها بكل قوامه اعتمد على موارد الغرب وعاش على موائده وكرمه وفاضل ماله الذي كان كبيرا حتى أن راتب الجندي في الجيش التركي كان يقارن بأكبر متنفذ في السلطة التركية ويربوه بامتيازاته ومزاياه.
ولقد شهدت تركيا الانقلابات من كبار الجنرالات ولم يكن وراءها إلا قوة الناتو والغرب وأدواته المتغلغلة في المفاصل المدنية التركية وكانت إرادة الغرب الإمبريالي هي الحاكمة الفعلية منعا من أن يرتفع فيها الصوت الداعي إلى أي نظام خارج إطار هذه المنظومة.

ومع سقوط الاشتراكية العالمية بكل ثقلها فقد فقدت تركيا أهميتها في الناتو ومعها بدأ الإسلاميون يشكلون القوة الصاعدة تراودهم أحلام السلطنة العثمانية التي انتهت كواقع وقد رأينا صعود الأردغانية في السنوات الأخيرة سيما في الفترتين الرئاستين الأخيرتين .
وجدنا دور الأردغانية المتمثلة بحزب العدالة والتنمية في تشكيل الحكومة الإخوانية بعد سقوط مبارك.

ودوره الناشط بعد سقوط نظام القذافي في ليبيا للحراك الإخواني حتى اللحظة.

أما في سوريا فقد كان رأس الحربة في كل خطة ذهبت إلى إسقاط النظام السوري بأي وسيلة وتحت أي ذريعة.
ولم يكتفي بدعم العسكر المنشقين وتجميعهم ودعمهم بل ألب على النظام من كل الأقطار وخلق الأجواء الداعمة لإسقاطه وجمع التكفيريين ومولهم بالمال والعتاد والذخيرة من جيوب الدول العربية على رأسها السعودية التي هي في الأساس القاعدة الفكرية لهم.

لقد وقع أردوغان ومعه الأنظمة العربية من السعودية وأدواتها في أكبر فخ نصبته إمريكا _أوباما.

ويبدو أنه ومن معه قد أدركوا جميعا أن تركيا والسعودية ومن معهما لم تعد تشكل ذات الأهمية الجيوسياسية في الإستراتيجية الإمريكية.
اليوم لم تعد تركيا بمضايقها وموقعها تشكل القيمة الكبرى في الحسابات الإمريكية.
إمريكا وعلى رأس مدير سي آي إيه قد أعلن قبل أيام أن الحرب لو حصلت في البلقان بين روسيا وناتو فإن روسيا ستحسم الحرب لصالحها في ثلاثة أيام.
بسفور ودردنيل لم يعدا ممرين إستراتيجيين بين الشرق والغرب أو بين الغرب في التجارة البينية أو لعبور البترول والغاز الروسي المسيل للغرب كما كان كان يشكل من الأهمية فيما مضى.

لم تعد تركيا أوالبلقان موقعين مهمين لنصب الصواريخ قبال روسيا كما كان قد حصل ما قبل خليج الخنازير في بداية الستينيات من القرن الماضي.

تركيا لم تعد مهمة للناتو وحاجزة عن وصول وارسو إلى عمق فارس والمياه الدافئة لأنه ببساطة لم تعد إيران من الضعف والحاجة لروسيا في الدفاع عن حدودها ومواقعها فهي اليوم بإمكانها من إقامة القواعد على أرضها لأي نظام شاءت ثم أن النفط برمته لم يعد محركا دافعا لأمريكا حتى تصل إلى المياه الدافئة ولديها قواعد ثابتة وعائمة في تلك المياه عددها 35 قاعدة.

ماقبل عشر سنوات كانت إمريكا تحتاج من نفط الخليج مانسبته 35% ، واليوم وبعد أن تفجرت ينابيع النفط الصخري من مواقعها فهي قد غدت في موقع التصدير وبالتالي فإن العامل الإقتصادي لبلدان الخليج الذي كان يشكل الأهمية الكبرى للاستراتيجية الإمريكية أضحى من الماضي والمصالح المشتركة بين عرب الخليج وبين إمريكا لم تعد من الأهمية يدفعها أن تكون المدافعة عن أنظمتها.

بقي أن نذكر أن تركيا وعندما تهاوت جميع إمبراطوريات العالم بعد الحرب الكونية الأولى فهي كانت في حسابات الكبار وعلى رأسهم بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية أن تتفكك إلى دويلات وكيانات عرقية ولاتبقى

قوة تستيقظ يوما على أحلام الدولة العثمانية التي غزت الأوربيين في عقر ديارهم وأخذت منهم الإماء والعبيد خدمة لبلاط السلاطين واستمتاعا لهم في لياليهم الحمراء على المرمرة وسفوح جبال العلويين.

ولأن الغرب يتفنن في إسقاط الأنظمة وعلى تفكيك الكيانات ولو بعد حين فقد رأى في تركيا بعد أن قضى منها كل الوطر أن يزرع في خاصرتها في الجنوب أول كيان كردي من عين العرب (كوباني) الذي سيعزز واقعه ويشد من أزره وستتبعه كيانات وكيانات.
بالأمس علت صيحة أوردغان وهو يخاطب إمريكا أن عليها أن تختار بين تركيا وبين الأكراد.
ولا أعلم أن نداءه قد بلغ أسماع أوباما أو كان يصرخ في واد سحيق.

اليوم روسيا قد أحاطت بتركيا شمالا وجنوبا.
الشمال من الأسود.
البحر الذي سيجتازه القيصر بوتين في عمق تركيا كما فعل بالأمس في القرم من التتار والغرب قد ملأ العالم ضجيجا واستنكارا ولم تهز من القيصر رمش جفن.
أما الجنوب فقد بدأ يلف بحبل المشنقة حول عنق تركيا رويدا رويدا.
من كان يظن أن روسيا تحيط بمياه البحر المتوسط كما قواته تفعل اليوم؟
كيف نقرأ هذا المشهد ونعلم أن هذا كان خطا أحمر في كل تاريخ الحرب الباردة بين القطبين من أن يقترب الروس من مواقع الكيان الغاصب ويقترب من تركيا من الجنوب.

يذهب بعض المحللين أن تركيا تعيش أتعس أوضاعها السياسية ولعل اندفاع السعودية لإنقاذ الوضع التركي سيوقعها هي الأخرى في محظور هي قد وقعت فيه في أكثر من جبهة.
فالرأي الذي يرى تلازم المصالح بين الطرفين منذ اندلاع الأزمة السورية منذ خمس سنوات يقرأ بحتمية وقوع الحرب البرية في سوريا لاعتبارات تتعلق من تمدد إيران في سوريا والعراق ماقبل اتفاقات جنيف بين إيران والخمسة الكبار.
ترى كيف سيكون المشهد مابعد الإتفاق؟
المملكة تجيش وتحفز على التقاتل وقد إستنفدت كل وسائلها المتاحة بما فيها الحرب الإقتصادية.

يرى أصحاب هذا الرأي أن المملكة ماكانت لتفعل ذلك لولا إدراكها أن أمريكا _أوباما قد ضربتها بالخنجر المسموم في خاصرتها.

ترى هل كانت إمريكا حامية للضعفاء أو الأنظمة الفاشلة أو جماعات شكلوا معارضة شيطنتها أبالسة الغرب والشرق لتسلمهم القياد؟

لقد قال وزير خارجية إمريكا لأحد (المعارضين) من سوريا قبل يومين:

هل تريد إمريكا أن تدافع عنكم؟

القوي من يضع أجندته .

هكذا علمتنا السياسة.

المنطقة مقبلة على خرائط يضع خطوطها الأقوياء.

الجنيف تضم الكبار والأقوياء وإن وجد فيها الضعفاء فهم فقط وفقط للعب بأوراقهم حتى تحترق.

علي محمد سلطان
كاتب عماني
2016/2/13